

العقيدة (1)

المحاضرة الثانية

التوحيد

توحيد الربوبية

توحيد الربوبية وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال وهذا القسم المفطورة القلوب على الإقرار به "﴿قالت رسلكم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم﴾" وأشهر من عرف تجاهله وجحوده وإنكاره الله هو فرعون وزعم البعض أن فرعون لما قال ما رب العالمين كان يسأل عن الماهية وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب والحق أنه استفهام إنكار وجحود قال تعالى "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً" فرعون لم يكن نافياً لله غير مثبت له طالباً العلم بماهيته ولذا كانت إجابات موسى عليه السلام عن آياته الواضحة والظاهرة وهو أشهر من أن يجهل ! ومعلوم أن من تكلم فقال أن للعالم صانعان لم يقل بأنهما متكافئان فإن الثنوية من المجوس والمانوية وهم من الثنوية قالوا بالأصلين : النور والظلمة وأن العالم صدر عنهما لكنهم اتفقوا أيضاً بأن النور خير من الظلمة وأن النور هو الإله المحمود بينما الظلمة شريرة مذمومة وتنازعا في الظلمة أيضاً هل هي قديمة أم محدثة .

ومن قال بالثنوية من النصارى فعنده أن صانع العالم واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم والأقانيم فسرت بأنها الخواص تارة والصفات تارة أخرى وتارة بالأشخاص ودليل على اتفاقهم على ذات واحدة هو قولهم: باسم الأب والابن ورو القدس إله واحد. والخاصة: أنه لم يقل أحد بأن للعالم صانعان متماثلان في الصفات والأفعال.

دليل التمانع

هو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما كأن يريد أحدهم تحريك جسم والآخر تسكينه فإما أن يحصل مرادهما وهذا ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين ، وإما لا يحصل مرادهما وهذا ممتنع أيضاً لامتناع خلو الجسم من الحركة والسكون! و يستلزم أيضاً عجز كل منهما والعاجز لا يكون إلهاً وإما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجز لا يصح للإلهية.

في كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد

له كل ذرة الوجود شواهد .. على أنه الباري الإله المصدر

- تأمل سطور الكائنات فإنها .. من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد كان فيها لو تأملت خطها .. ألا كل شيء ما خلا الله باطل

[والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع، وهو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما -مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته- فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع؛ لأنه

يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع؛ لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية، وتام الكلام على هذا الأصل معروف في موضعه]. أتى الشارح بهذا ليبين أن هذا هو الدليل عند أهل الكلام على أن الخالق واحد، ويسمى دليلاً عقلياً، وتسمى دلالة التمانع، فيقولون: لو كان للعالم صانعان متكافئان كلاهما خالق مستقل مكافئ للآخر فأراد أحدهما تسكين شيء وأراد الآخر تحريكه، أو أراد أحدهما إحياء شخص وأراد الآخر إماتته لاختلفاً، فإذا كان العالم له خالقان فقد يختلفان، يقول هذا: سنحيي هذا.

ويقول الآخر: سنميتة.

تعالى الله! فإذا أراد هذا إحياءه وأراد هذا إماتته واختلفاً، فماذا يحصل؟ هل يمكن أن يكون هذا الشخص حياً ميتاً؟! لا يمكن. هل يمكن أن يكون متحركاً ساكناً في آن واحد؟! لا يمكن، فما يمكن أن يحصل مرادهما معاً؛ لأنه جمع بين الضدين، إذاً لا بد أن يحصل مراد واحد منهما، أو لا يحصل مراد أحد منهما، وكونه لا يحصل مراد كل منهما ممتنع أيضاً، فالجسم لا بد أن يكون إما متحركاً وإما ساكناً، إما حياً وإما ميتاً، فلا يمكن أن يكون خالياً من الحركة وخالياً من السكون، ولا يمكن أن يكون غير حي ولا ميت، إذاً لا بد أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده هو الإله، والذي لا يحصل مراده هو عاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، وهذا يسمى عندهم دليل التمانع، وقد دل على ذلك القرآن في قول الله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: 22] يعني: لو كان مع الله آلهة مساوية له لفسدت المخلوقات، وذلك لما يلزم من اختلاف الأهواء واختلاف الإرادات، فهذا ونحوه مما يدل عقلاً على أن العالم خالقه واحد وهو الله تعالى، وهو المتصرف في هذا الكون كما يشاء.

وجود الشرك في بعض الربوبية

الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقاً خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية في الظلمة، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع أو ضرر بدون أن يخلق الله ذلك].

إن الشرك في توحيد الربوبية قليل وجوده في الخلق، إلا أن هناك من يشرك شركاً جزئياً، مثل المجوس الذين أشركوا في توحيد الربوبية وجعلوا الخلق من اثنين من النور والظلمة، واعتبروا أن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر، ولم يجعلوهما سواء، بل النور خير والظلمة شريرة، وهم لا يعظمون إلا واحداً، ولهذا فهم يعبدون النار، ومثل بعض المعتزلة الذين يجعلون بعض المخلوقات من إيجاد الحيوانات، ويقولون في الأفعال: إن الإنسان يخلق أفعاله بدون قدرة الله؛ والمجوس يجعلون الوجود عن خالقين، والمعتزلة يجعلونه عن عدد، ولذلك سمي المعتزلة: مجوس هذه الأمة، ولو زعموا أنهم ينزهون الله تعالى عن الظلم؛ لأن

عملهم نوع شرك في الربوبية، وإن كانوا لا يعبدون إلا الله، ولكن كونهم يسندون بعض الأفعال إلى غير الله

والمعتزلة يقولون: إن الإنسان يخلق فعله، صدق أنهم مشركون نوع شرك في الربوبية. وعلى كل حال: فالأصل أن الأمم كلهم يعترفون بتوحيد الربوبية، إلا من شذ، كفرعون الذي كان ينكر ذلك ولكنه كان في باطن الأمر يعترف بأنه مخلوق وأن له خالق، ويوجد في هذه الأزمنة من يسمون بالشيوعيين، وقديماً كانوا يسمون بالدهريين، وهم في الحقيقة معاندون مكابرون، وإلا فلو أعملوا تفكيرهم، ولو حكموا أذهانهم لما بقوا على هذه العقيدة السيئة، ولكن مع المكابرة قلدوا من يقول بها ومن يذهب إليها، فالأصل أن جميع طبقات العالم المكلفين يعترفون بأن للعالم خالقاً، حتى الفلاسفة وإن كانوا ينقسمون إلى دهريين وإلهيين؛ جلهم على الاعتراف بالخالق.

الميثاق

والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق (قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف:172]. يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم ﷺ وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم: فمنها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان -يعني: عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف:172] إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:173].

ورواه النسائي أيضاً و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب! من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود.

قال: رب! كم عمره؟ قال: ستون سنة.

قال: أي رب! زده من عمري أربعين سنة.

فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟! قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطت ذريته)، ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أريت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم).

قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي) وأخرجاه في الصحيحين أيضاً. وفي ذلك أحاديث أخر أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل النار وأهل الجنة]. يؤمن أهل السنة بالميثاق الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:172-173]. فهذه الآية فيها أن الله أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم.

ذكر قول من قال بأن الذرية مأخوذة من ظهور بني آدم

وقد اختلف في المراد بالذرية المأخوذين هل هم مأخوذون من ظهر كل إنسان، أو كلهم من آدم؟ وظاهر الآية أنهم من ظهور بني آدم، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:172] أي: من كل إنسان أخرج ذريته. ثم كلمهم وخاطبهم وقال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ [الأعراف:172]، ويكون هذا هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، كما في قوله تعالى: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ [الروم:30].

وكما في قول النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟)، فأخبر بأن الآدمي يولد على الفطرة، وإنما تتغير فطرته بسبب ما يتلقاه من أبويه أو من أقاربه أو من بينته ومن ينشأ بينهم، وإلا فلو ترك كل أحد على فطرته لعرف ما خلق له، ولعرف أن له رباً، ولعرف أنه مكلف ولبحث بعد ذلك عن التكليف التي أمر بها. ويؤيد هذا أن الفطرة هي الخلقة والابتداء، كما في قوله تعالى: فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا [فاطر:1]: (فاطرها): منشئها ومبدئها وموجدتها، فالله تعالى هو الذي فطر الخلق، أي: ابتداء خلقهم وأوجدهم على غير مثال سبق.

أما القول الثاني -وهو ما ذكر في هذه الأحاديث- فهو قول من الأقوال في معنى الآية، وإن كانت الآية بينها وبينه نوع مخالفة، فهو ينص في هذه الأحاديث على أن الله لما أخرج آدم مسح ظهره واستخرج منه كل نسمة هو خالفها إلى يوم القيامة، والله تعالى قادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، ولما استخرجهم عرضهم على آدم، فعرفهم وأخبره بأنهم ذريته،

وأنهم سوف يُخلقون من صلبه وأصلاب أبنائه إلى يوم القيامة. وفي بعض الروايات أن الله استخرج أهل الخير وقال: (هؤلاء للجنة خلقتهم ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء خلقتهم للنار ويعمل أهل النار يعملون)، فميزهم وهم في صلب آدم، وبَيَّنَ مَنْ هم السعداء وَمَنْ هم الأشقياء، وعلم أهل الجنة من أهل النار، وعلم من يعمل لهذه ومن يعمل لهذه.

الإقرار بالربوبية أمر فطري :

ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارئ ، والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عاداتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن ، يقال لهم : أنتم كنتم معترفين بالصانع ، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له ، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم ، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا ، قال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ (النساء : 135)

وليس المراد أن يقول : أشهد على نفسي بكذا ، بل من أقر بشيء فقد شهد على نفسه به ، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة ، تقليدا لمن لا حجة معه ، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية ، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها ، وفيه مصلحة لكم ، بخلاف الشرك ، فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فسادها وعدولكم فيه عن الصواب .

فإن الدين الذي يأخذه الصبي عن أبويه هو : دين التربية والعادة ، وهو لأجل مصلحة الدنيا ، فإن الطفل لا بد له من كافل ، وأحق الناس به أبواه ، ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما في أحكام الدنيا الظاهرة ، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح - حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة ، وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل ، وهو الذي يعلم بعقله هو أنه دين صحيح ، فإن كان أبواه مهتدين ، كيوسف الصديق مع آبائه ، قال : واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب (يوسف : 38) ، وقال ليعقوب بنوه : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (البقرة : 133) ، وإن كان الآباء مخالفيين الرسل ، كان عليه أن يتبع الرسل ، كما قال تعالى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الآية (العنكبوت : 8) .

بعض معاني البوبية

الخالق الرازق

قوله: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة)

شرح: قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [2]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [3]، (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) [4]، (قُلْ أَعْيَّرَ اللَّهُ لِيَا قَاتِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) [5]

وقال ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته - ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر الحديث. [6]. وقوله بلا مؤنة: بلا ثقل ولا كلفة.

المحيي المميت :

شرح: الموت صفة وجودية، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم.

قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا. وفي الحديث: أنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار. وهو وإن كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا، كما ورد في العمل الصالح: أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة وورد في القرآن: أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون، الحديث أي قراءة القارىء وورد في الأعمال: أنها توضع في الميزان، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض.

قوله: (وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا)

وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق أسم الخالق قبل إنشائهم

شرح: يعني: أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم، كما حكينا عنهم فيما تقدم. وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء.

““

اسأل الله لي ولكم التوفيق والسداد

khaled